التفكير النقدي

العدد الثاني: السؤال الذي ينبغي أن تطرحه قبل تصديق أي خبر

ذكرنا في العدد السابق أنّ المفكّر النقدي لا يبادر إلى التصديق، بل يبدأ بالسؤال. ولكن ما السؤال الذي ينبغي أن يطرحه؟

تكمن نقطة البداية في التمييز بين ثلاثة مفاهيم كثيراً ما تختلط في أحاديثنا اليومية: **المعرفة، والاعتقاد، والرأي.**

فالمعرفة هي قضيةٌ تستند إلى أدلّة وشواهد كافية، بحيث يمكن التحقّق منها وإثباتها أو نقضها. أمّا الاعتقاد فهو تبنّي الإنسان لقضيةٍ ما، سواء استند إلى دليلٍ كافٍ أم لم يستند. وأمّا الرأي فهو موقفٌ أو تقييمٌ شخصيّ يعكس وجهة نظر صاحبه أو تفضيله، ولا يكون صحيحاً أو خاطئاً بالضرورة.

وتبدأ المشكلة حين تُعرض هذه المستويات الثلاثة، ولا سيّما في وسائل التواصل الاجتماعي، بالأسلوب نفسه وبدرجةٍ واحدة من الجزم، فيصعب على المتلقّي أن يميّز: هل ما يسمعه حقيقةٌ قابلة للتحقّق؟ أم اعتقادٌ شخصي؟ أم مجرّد رأيٍ أو ذوق؟

وليس هذا التمييز غريباً عن تراثنا العلمي؛ ففي علم أصول الفقه نجد عنايةً دقيقة بتفاوت درجات الوثوق بالقضايا، من خلال مفاهيم مثل **العلم والظن والشك**، حيث خُصّص لكلّ واحدٍ منها حكمٌ وآثارٌ تختلف عن الآخر. وقد ناقش الأصوليّون، على سبيل المثال، مدى حجّية الظن، وهل يكفي وحده أساساً للعمل أم يحتاج إلى دليلٍ أقوى. وهذا يكشف عن وعيٍ مبكّر بأنّ القضايا ليست جميعها في مرتبةٍ واحدة من الاعتبار، وأنّ لكلّ دعوى درجةً من القوّة ينبغي تقديرها قبل إصدار الحكم عليها.

لذلك، عندما تسمع خبراً أو تقرأ منشوراً، جرّب أن تسأل نفسك ثلاثة أسئلة:

- هل هذه حقيقةٌ يمكن التحقّق منها؟
- أم أنّها تعبّر عن اعتقاد صاحبها؟
- أم أنّها مجرّد رأيٍ أو تفضيلٍ شخصي؟

إنّ كثيراً من الجدل العقيم في الفضاء الرقمي ينشأ من الخلط بين هذه المستويات الثلاثة.

تدريب هذا العدد:

اختر ثلاث عباراتٍ ممّا قرأته اليوم في الأخبار أو وسائل التواصل، ثمّ حدّد: هل تمثّل معرفةً، أم اعتقاداً، أم رأياً؟

الخلاصة:

قبل أن توافق على أيّ قضية أو ترفضها، حدّد أولاً طبيعتها: أهي معرفة، أم اعتقاد، أم رأي؟ فهذه هي الخطوة الأولى نحو تفكيرٍ أكثر دقّةً ووعياً.

تعريف بكتاب

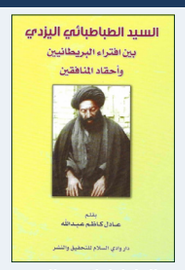

كتاب «السيد الطباطبائي اليزدي بين افتراء البريطانيين وأحقاد المنافقين» من تأليف عادل كاظم عبدالله، وصدر عن دار وادي السالم للتحقيق والنشر والتوزيع على خمسة فصول: الأول مختصر للسيرة الذاتية للسيد الطباطبائي اليزدي ﵀، والثاني مختصر للسيرة السياسية، والثالث متن الفرية البريطانية، والرابع متن الفرية من كتاب «مع الصادقين»، والخامس كشف الافتراءات والرد عليها. ويُختم الكتاب بخاتمة، ثم قائمة المصادر والمراجع، وفهرس المحتويات. كما يتضمن ترجمة موسعة، ومواقف سياسية، ووثائق ورسائل، وردوداً على مزاعم ديكسون وكتاب «مع الصادقين»، ويهدف إلى تصحيح الصورة التاريخية والسياسية لهذه الشخصية. ويعد الكتاب دراسة تاريخية نقدية تجمع بين الترجمة والدفاع والرد، وتنبع أهميته من تناوله مرجعاً دينياً وسياسياً بارزاً في العراق وإيران، ومناقشته لروايات ديكسون وكتاب «مع الصادقين». وقد اعتمد المؤلف على الوثائق والرسائل والمصادر التاريخية، مع الإشارة إلى مواقف السيد اليزدي ﵀ من الاحتلال البريطاني والفتن الداخلية.

أسئلة الورود

ما الفرق بين العرفان والتصوف ؟! ولماذا يعترض بعض العلماء على العرفان ؟

السؤال: ما الفرق بين العرفان والتصوف ؟! ولماذا يعترض بعض العلماء على العرفان ؟

الجواب:

إن العرفان على قسمين:

أحدهما: العرفان النظري، وهو يُعْنى بتفسير الوجود ويبحث عن الله، وعن العالم وعن الإنسان، ولكنه يعتمد في الوصول إلى الحقيقة وفي الاستدلال عليها على الكشف، ثم يوضح بلغة العقل، ما يشاهده بالقلب. ويرى العارف أن وجود الله هو الأساس، وكل ما عداه ما هو إلا أسماء، وصفات، وشؤون، وتجليات له تعالى . .

الثاني: العرفان العملي وهو الجانب الذي يتعلق بعلاقة الإنسان مع نفسه، ومع ربه، ومع العالم . وهذا ما يسمى بالسير والسلوك، الموصل إلى قمة الإنسانية، وهو التوحيد التام، الذي يطوي إليه المنازل والمراحل في سلوكه هذا . . والتوحيد الحقيقي عند العارف هو أن يدرك، أو فقل أن يصل إلى مرحلة لا يرى فيها إلا الله، أو أن الوجود الحقيقي هو لله، وكل ما عداه فليس سوى مظهر، وليس بوجود .

وإنما يصل العارف إلى هذه المرحلة بالمجاهدة، وتصفية النفس، وتهذيب الأخلاق، لا بالاستدلال العقلي، والعارف يربي نفسه على التزام حدود الشريعة، وعلى أن يستفيد منها في ترتيب برنامج رياضته الروحية، من خلال اهتمامه بالعبادات والمستحبات، وبعد الالتزام التام بأحكام الشرع، لكي يصل من خلال ذلك إلى الله سبحانه . .

أما الصوفية، فهم أناس يعرفون على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم بلبس الصوف إظهاراً منهم للتقشف والزهد في الدنيا . . ولهم تأويلات عجيبة للآيات القرآنية، وتنسب إليهم اعتقادات باطلة، وأقاويل سقيمة. ولعل من جملة ما يميزهم كثيراً عن أهل العرفان: أنهم لا يهتمون كثيراً بالرياضة والسلوك ولا يهتمون بالعبادة، ولا يجهدون أنفسهم فيها، ولعل ذلك بسبب أنهم يرون أن الجذب الإلهي، ونيل المراتب، قد يشمل حتى من لم يطو أي مرحلة من مراحل السير والسلوك إلى الله، فيصل من خلال ذلك الجذب إلى درجة المعرفة والشهود، من دون بذل أي مجهود. ويسمي الصوفية طريقة السالك إلى الله؛ بالترقي لأنها سير من الأدنى إلى الأعلى، وطريقة المتصوفة بالتدلي، والسالك العارف يصل إلى الله بدلالة آثاره، وأسمائه وصفاته، والصوفي يصل إلى الله بالجذب، والكشف، وينتقل منه إلى شهود صفاته، ومعرفة أسمائه وآثاره، وهذا هو الذي يستحق أن يكون شيخاً ووليا وإن كان بعض الصوفية يرى أن العارف أيضاً السالك قد يصل إلى درجة الولاية والشيخية.

وهم يعتقدون في أنفسهم -كما يقول السراج الطوسي-: « أنهم أمناء الله ﷻ في أرضه، وخزنة أسراره وعلمه، وصفوته من خلقه، فهم عباده المخلصون، وأولياؤه المتقون، وأحباؤه الصادقون الصالحون، منهم الأخيار والسابقون، والأبرار والمقربون، والبدلاء والصديقون، هم الذين أحيى الله بمعرفته قلوبهم، وزين بخدمته جوارحهم، وبهج بذكره ألسنتهم، وطهر بمراقبته أسرارهم، سبق لهم منه الحسنى، بحسن الرعاية، ودوام العناية، فتوجهم بتاج الولاية ». ثم يستمر في كلامه:«إلى أن طبق عليهم قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ...﴾ فتجد أنهم يجعلون لأوليائهم نفس المقامات التي جعلها الله لأئمة أهل البيت ﷺ .

وعلى كل حال، نقول: من أراد أن يلم ببعض ما ينسب إلى هؤلاء الناس من ترهات وأباطيل، ومن تصرفات وأقاويل، وأضاليل، فليراجع كتاب: فضايح الصوفية، وكتاب تنبيه الغافلين.

المصدر: أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة، السيد جعفر مرتضى العاملي، السؤال (٢٩٢)

مقتطفات

أبعاد شخصية السيد عبد العظيم الحسني في فكر قائد الثورة الإسلامية الشهيد

مقتطفات من كلمات قائد الثورة الإسلامية سماحة الإمام السيد علي الخامنئي ﵀ يتطرّق فيها لأبعاد شخصية السيد عبد العظيم الحسني الجهادية والعلمية والمعنوية العظيمة.

وقال سماحته "إنّ شخصية السيّد عبد العظيم مجهولة لدى غالبيّة النّاس".

وأضاف السيد الخامنئي: لقد كان السيّد عبد العظيم رجلاً عظيماً جدّاً. يجهل النّاس مراتب هذا العظيم العلميّة. أعتقد أن السيّد "ريشهري" قام في فترة من الفترات باستخراج أحاديث هذا العظيم وأظنّ أنكم قد نقشتموها كلّها على ذاك الحائط. هذا الأمر يسهم كثيراً بأن يتعرّف النّاس على منزلته كونه كان ناقلاً للأحاديث.

تكريم جناب السيّد عبد العظيم هو تكريم للعلم والزّهد والتقوى والجهاد. لقد كان يصوم النهار ويقوم في الليالي.

روي حول سيرته: في الفترة التي قضاها في ري، كان يصوم جميع الأيام وينهمك بالعبادة في جميع الليالي. هذه الأمور في غاية الأهميّة للحقّ والإنصاف.

وردت روايات معروفة في شأنه وحول فضله. يقول الإمام الهادي ﵇ لأحدهم ممّن كان عائداً من زيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسّلام: "لو أنّك زرت عبدالعظيم، لنلت ثواب زيارة الإمام الحسين." نحن نعيش إلى جوار السيّد عبد العظيم، يعتمر قلبنا الشّوق لزيارة كربلاء؛ لكنّنا قلّما نوفّق لزيارة هذا العظيم.

هذه رواية تبرز المقام المعنوي للسيّد عبدالعظيم الحسني. في تلك الحقبة أراد الإمام الهادي ﵇ أن تضيئ هذه الشّعلة من قلب إيران. لم يكن عليه السلام يمدح دون هدف.

كان يريد أن تستضيئ قلوب أفراد الأمّة الإسلامية في هذه النقطة من العالم بواسطة نور هذه الشّعلة التي هي من أنوار أهل البيت ﵈ وكانت قد رحلت في تلك الفترة ولم تعد تهدّدها أيّ من الأخطار.

أبعاد شخصيّة السيّد عبد العظيم الحسني

لقد كانت شخصيّة السيّد عبدالعظيم الحسني شخصيّة علمية، شخصيّة جهادية وكانت لديه شخصيّة إبداعيّة أيضاً. يقول المرحوم "الشّيخ النّجاشي": لقد كان يجمع خطب أميرالمؤمنين".

إذا فقد قام بجمع خطب أميرالمؤمنين قبل ما يقارب المئة وسبعين سنة من تأليف نهج البلاغة؛ هذا عمل في غاية الأهميّة. ليس من المستبعد أبداً أن يكون السيّد رضي﵀ قد استفاد من كتاباته.

من منطلق شخصيّته الجهاديّة قدم إلى مدينة ري متخفّياً

يقول الشيخ النجاشي: "هارباً من السّلطان"؛ لقد هرب من سلطة الخليفة العبّاسي في العراق والحجاز وقدم إلى ري؛ لأنّ مدينة ري كانت مقرّ اجتماع الشيعة. لم يكن الجميع مضطرّون للهرب من سلطة الخليفة في المدينة والعراق. هذا الأمر يبرز كونه إنساناً مناضلاً.

يتبيّن لنا أنّه كان من ناشري معارف الإمامة خاصة في فترة إمامة الإمام الجواد والإمام الهادي ﵈ حيث أنّه من رواة أحاديث هذين الإمامين على الأقل. كانت مرحلة عجيبة؛ مرحلة اختناق شديد بالنسبة للأئمة وفي الوقت عينه مرحلة نشاط الشيعة العجيب في أنحاء العالم الإسلامي. هذا أمر ذا أهميّة لأنّه لم تشهد عصور الأئمة مثل هذا النشاط والتحرك والتنظيم والتوسّع في العالم الإسلامي الذي شهدته مراحل هؤلاء الأئمة الثلاثة (أي الإمام الجواد والإمام الهادي والإمام الحسن العسكري ﵈)؛ حيث كان هؤلاء الأئمة في المدينة وبغداد وسامراء يقعون تحت عين المراقبة الشديدة والضغوط الشديدة أيضاً. يتبيّن إذاً مدى نشاط وأهمية شخصية هذا العظيم في تلك المرحلة حيث لفت أنظار الخليفة وبات ملاحقاً وهرب إلى مدينة ري.

إذاً هي شخصية جهادية وشخصية علمية أيضاً ومن رواة الأحاديث وقد نقل روايات عديدة عن الإمامين الجواد والهادي ﵈.

المرجع العلمي الديني في زمان الإمام الهادي ﵇

هناك أيضاً رواية منقولة عن الإمام الهادي عليه الصّلاة والسّلام تبيّن الجانبين العلمي والمعنوي للسيّد عبد العظيم الحسني.

جاء أحدهم إلى الإمام الهادي ﵇. فقال له عليه السلام: أين تسكن؟ أجابه: في مدينة ري.

قال له ﵇: يمكنك الرجوع للسيد عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني في أي مشكلة دينيّة تطرأ عليك.

أي أنّ الإمام الهادي ﵇ قدّم السيد عبد العظيم الحسني كمرجع ديني لشيعته.

وفي رواية أخرى يقول ﵇: بلّغه سلامي. هذا هو الجانب المعنوي.

المصدر: دار الولاية للثقافة والإعلام

نافذة على المقالات

الحياة العلمية ومكانة الآخوند الخراساني في زعامة الحوزة العلمية في النجف

عنوان المقال

"زندگی علمی و جایگاه آخوند خراسانی در زعامت حوزه علمیه نجف" (الحياة العلمية ومكانة الآخوند الخراساني في زعامة الحوزة العلمية في النجف)، للدكتور أمير تيمور رفيعي (الأستاذ المساعد بقسم التاريخ في جامعة آزاد الإسلامية - فرع محلات) ومحمد وزين (حاصل على الماجستير في تاريخ الثورة الإسلامية)، منشور في الفصلية العلمية المحكّمة "تاريخ"، السنة السادسة، العدد الحادي والعشرون، ص١١٣-١٣١.

موضوع المقال

يتناول المقال السيرة العلمية والعملية للآخوند محمد كاظم الخراساني (١٢٥٥-١٣٢٩هـ)، أحد أبرز مراجع التقليد في النجف وزعيم الحركة الدستورية (المشروطة) في إيران، من نشأته في مشهد وتحصيله العلمي في سبزوار وطهران والنجف، إلى مكانته التدريسية ودوره في تخريج جيل من كبار مراجع الشيعة، وصولًا إلى موقفه من قضايا العصر كتعلم اللغات الأجنبية ودعم الصناعة الوطنية، وانتهاءً بوفاته المفاجئة وما أُثير حولها من شبهة التسميم.

سؤال البحث وإشكاليته

يسعى الباحثان إلى الإجابة عن سؤال محوري: ما الذي ميّز الآخوند الخراساني عن سائر مراجع عصره، وكيف وظّف مكانته العلمية التقليدية في خدمة التحول السياسي والاجتماعي في إيران؟ ويشير الكاتبان إلى إشكالية أعمق: كيف استطاع عالم يمثّل التيار الفقهي والأصولي التقليدي أن يتحول إلى قائد فكري لحركة تجديدية سياسية (المشروطة)، مستندًا في ذلك إلى اجتهاد فقهي أصيل لا إلى قطيعة مع التراث؟

منهج الدراسة

اعتمد الباحثان منهجًا وصفيًا تاريخيًا، عبر جمع المعلومات من الكتب والمقالات والصحف والوثائق المتعددة المتعلقة بحياة الآخوند الخراساني، مع الاستشهاد بأقواله المباشرة وشهادات معاصريه وتلامذته، ومقارنة عدة مصادر مرجعية حديثة تناولت جوانب من سيرته السياسية والفكرية.

أبرز الأفكار والنتائج

يرصد المقال المراحل الأساسية لحياة الآخوند: نشأته في أسرة علمية من أصول هراتية استقرت في مشهد، وبدايات تحصيله في المدرسة السليمانية، ثم رحلته إلى النجف عبر سبزوار وطهران، حيث لفت الأنظار في مجلس الحكيم ملا هادي السبزواري الذي تنبأ له بمستقبل علمي عظيم. يفصّل المقال قصة تسميته بـ"الآخوند خراساني" إثر واقعة علمية في كربلاء دافع فيها عن رأي الآخوند الأردكاني أمام أستاذه الشيخ الأنصاري، ما أثار إعجاب الطلبة الحاضرين. كما يعرض شبكة أساتذته (الشيخ مرتضى الأنصاري، ميرزا محمد حسن الشيرازي، السيد علي الشوشتري في الأخلاق) وشبكة تلامذته الواسعة الذين تسلسلت منهم مرجعية التقليد العامة في العالم الشيعي حتى العصر الحاضر (كالسيد أبي الحسن الإصفهاني، والشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي مؤسس حوزة قم، والسيد حسين الطباطبائي البروجردي). ويتوقف المقال عند انضباطه التدريسي الصارم الذي لم ينقطع طوال ثلاثة عشر عامًا حتى في يوم وفاة زوجته، وعند دعوته لطلابه إلى تأخير الزواج تفرغًا للعلم. ويسلط الضوء على بعد حداثي في فكره تمثّل في تشجيعه تعلّم اللغات الأجنبية وتأسيسه مدرستين لذلك، ودعوته الملك محمد علي شاه والنواب إلى تطوير الصناعة الوطنية والاستقلال الاقتصادي، بل استخدامه شخصيًا للمنسوجات الإيرانية. كما يستعرض المقال مؤلفاته، أهمها "كفاية الأصول" التي لا تزال المتن الأصولي الأخير المعتمد في الحوزات، إلى جانب حواشيه على "رسائل" الشيخ الأنصاري و"مكاسبه"، ورسالته في "دماء ثلاثة". ويختم بوصف وفاته المفاجئة ليلة ٢١ آذر ١٢٩٠ الشمسي أثناء توجهه إلى مسجد السهلة، والجدل حول كونها موتًا طبيعيًا أم تسميمًا دُبِّر لمنعه من التوجه إلى إيران.

القيمة العلمية

تكمن قيمة المقال في جمعه بين السيرة العلمية التفصيلية (الأساتذة، التلامذة، المؤلفات، أسلوب التدريس) والبعد السياسي-الفكري لشخصية الآخوند الخراساني بوصفه نموذجًا لعالم تقليدي حوّل الاجتهاد الفقهي إلى أداة دعم لمشروع دستوري حديث، دون قطيعة مع الأصول، وهو إسهام يفيد الباحثين في تاريخ الحركة الدستورية الإيرانية وتاريخ الحوزات العلمية الشيعية على السواء.

تقييم تحريري

يمتاز المقال بغزارة التفاصيل السيرية والاستشهاد المباشر بأقوال الآخوند ومعاصريه، لكنه يغلب عليه الطابع السردي التوصيفي أكثر من التحليل النقدي العميق لدلالات هذا التحول من الفقاهة التقليدية إلى القيادة السياسية. كما تفتقر الخاتمة إلى ربط منهجي واضح بين المحاور المتعددة (السيرة، التدريس، التحديث، الوفاة). يفيد المقال طلاب التاريخ المعاصر للحوزات الشيعية والباحثين في سيرة قادة الحركة الدستورية الإيرانية.

مصطلح الأسبوع

التورية

التورية من المصطلحات الأخلاقية والفقهية التي تعني استعمالَ لفظٍ يحتمل معنيين؛ أحدهما ظاهرٌ يتبادر إلى ذهن السامع، والآخر خفيٌّ هو المقصود الحقيقي للمتكلّم. وبذلك يكون الكلام صادقاً في نفسه، وإن فهم المخاطب منه معنىً آخر. ولهذا يميّز أكثر الفقهاء بين التورية والكذب؛ فالكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، أمّا التورية فهي استعمالُ تعبيرٍ يحتمل أكثر من معنى مع قصد أحدهما.

ويرى جمهور فقهاء الإمامية أنّ التورية جائزةٌ في أصلها، بل قد تكون راجحةً أو واجبةً في بعض الموارد، كدفع الظلم، أو حفظ النفس والمال والعِرض، أو الإصلاح بين الناس، أو التخلّص من الحرج، ما دامت لا تؤدّي إلى إبطال حقٍّ أو إيقاع ظلمٍ أو التحايل على الأحكام الشرعية.

إلّا أنّ هذا الرأي لم يحظَ باتفاقٍ كامل؛ فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنّ معيار الصدق والكذب هو **المعنى الذي يفهمه المخاطب من ظاهر الكلام**، لا المعنى الذي يقصده المتكلّم في نفسه، وبناءً على ذلك عدّوا بعض صور التورية من الكذب. كما رأى آخرون أنّ التورية إذا قامت على استعمال مجازي لا تساعد عليه قرينةٌ ظاهرة، فإنّها تندرج في حكم الكذب. ونُقل عن **صاحب الجواهر** أنّ بعض موارد التورية تُعدّ عرفاً كذباً، كما استند بعض المعارضين إلى أنّ المفسدة الأساسية للكذب، وهي إيقاع المخاطب في الجهل أو الخطأ، قد تتحقّق في التورية أيضاً، وإن اختلفت صورتها.

وفي التراث السنّي أيضاً نوقشت هذه المسألة، فاستُعملت كلمة **«الكذب»** في بعض الروايات للدلالة على التورية، غير أنّ عدداً من العلماء حمل هذا الإطلاق على سبيل المجاز؛ لما بين التورية والكذب من مشابهة في الأثر، مع منهما ليس واحداً.

وهكذا تبقى التورية من المسائل التي تجمع بين البعد اللغوي والأخلاقي والفقهي، وتكشف عن دقّة الفقه الإسلامي في الموازنة بين **وجوب الصدق** من جهة، **ومراعاة المصالح الشرعية ودفع المفاسد** من جهة أخرى، ضمن ضوابط دقيقة تمنع تحويلها إلى وسيلة للخداع أو انتهاك الحقوق.

قبس من نور

قَبَسٌ مِن نور

حين يكشف حرفٌ بابًا من التدبر

د. أحمد باقر الطويل

كم مرة مررنا على آيةٍ من القرآن ونحن نظن أننا فهمناها من أول قراءة؟ وكم مرة كانت كلمةٌ واحدة، أو حرفٌ واحد، كافيًا لأن يفتح أمامنا معنى لم نكن نلتفت إليه؟

فالقرآن لا يختار ألفاظه اعتباطًا، ولا ينتقل من صيغةٍ إلى أخرى من غير حكمة. وكلما توقف الإنسان عند طريقة القرآن في التعبير، لا عند المعنى العام فقط، انفتح له بابٌ جديد من التدبر.

ومن الآيات التي تستوقف المتأمل قوله تعالى بعد ذكر قوم لوط وأصحاب الأيكة: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)﴾، (الحجر: ٧٨–٧٩).

وهنا يبرز سؤال صغير في ظاهره، لكنه يفتح معنى واسعًا: لماذا بدأ السياق بالجمع: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾، ثم قال: ﴿مِنْهُمْ﴾، ثم انتقل فجأة إلى المثنى:﴿وَإِنَّهُمَا﴾؟

إذا كان الحديث عن أصحاب الأيكة، فلماذا لم يقل: "وإنهم"؟

هنا يبدأ التدبر.

فالقرآن يدعونا ألا نقرأ ما يقوله فقط، بل أن نتأمل كيف يقوله. وقد ذهب عددٌ من المفسرين في توجيه هذا الضمير إلى أن الحديث انتقل من القوم إلى ديارهم؛ أي إلى ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة، فهذان الموضعان كانا على طريقٍ ظاهرٍ معروف، يمر به الناس ويشاهدون آثارهما.

وكأن المشهد ينتقل من قومٍ هلكوا إلى آثارٍ بقيت بعدهم.

رحل الظالمون، لكن بقيت ديارهم شاهدةً على ما صنعوا.

وهنا يصبح المكان نفسه رسالة. فالإنسان قد لا يرى أصحاب الأيكة، ولا يرى قوم لوط، لكنه يستطيع أن يرى آثارهم، فيقرأ في تلك الآثار درسًا لا يقل أثرًا عن قراءة الكلمات.

ثم تأتي العبارة الأكثر إثارة للتأمل: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

لماذا قال القرآن: "بإمام"؟

الإمام في الاستعمال القرآني أوسع من أن يكون مجرد شخصٍ يتقدّم الناس؛ فهو ما يُؤتَمّ به ويُتّبع ويقود إلى مقصد. ولذلك وصف الله تعالى الكتاب بقوله:﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، كما تحدث عن أئمةٍ يهدون بأمر الله، وعن أئمةٍ يدعون إلى النار.

وهنا تتسع الدلالة.

فالإمام ليس بالضرورة شخصًا فقط، بل قد يكون كل ما يتخذه الإنسان متقدمًا عليه في طريقه، ويترك له أثرًا في اتجاهه وقراراته.

ولهذا يمكن أن يصبح الطريق إمامًا إذا كان يقود الإنسان إلى غاية، ويمكن أن يصبح التاريخ إمامًا إذا أحسن الإنسان قراءته، ويمكن أن تصبح آثار الأمم إمامًا حين تقود الإنسان إلى العبرة.

فديار الأمم الهالكة ليست مجرد أماكن مرّ بها التاريخ، وإنما شواهد يمكن أن تقود من يراها إلى حقيقةٍ أكبر: أن الظلم لا يدوم، وأن السنن الإلهية لا تتغير بتغير الأزمنة والأسماء.

ومن هنا يظهر سؤالٌ أشد قربًا من حياتنا: من هو إمامك؟ وإلى أين يقودك؟

فالإنسان لا يعيش بلا ما يقوده، حتى وإن ظن أنه يعيش بلا إمام. قد يتبع عالمًا، أو فكرةً، أو رغبةً، أو هوىً، أو دنيا، أو مبدأً، وكل ما يتقدمه في مسيره ويؤثر في اتجاهه يصبح له بمنزلة الإمام.

ولهذا لم يجعل القرآن القضية: هل تتبع أم لا؟ وإنما يجعلها أيضًا: من تتبع؟ وإلى أين يقودك اتباعك؟

فقد يكون ما نتبعه هاديًا بنا إلى الحق، وقد يكون قائدًا بنا إلى الضلال.

وهنا تعود الآية إلى بدايتها، ونكتشف أن السؤال عن ضميرٍ صغير قادنا إلى سؤالٍ كبير عن طريقة قراءة القرآن، وعن معنى الاقتداء، وعن الطريق الذي يسلكه الإنسان في حياته.

وربما كان هذا هو جمال التدبر.

أن تتوقف عند كلمةٍ ظننتها عابرة، فتكتشف أنها لم تكن عابرة.

أن تسأل: لماذا قال القرآن "هما" ولم يقل "هم"؟ ولماذا قال "إمام" ولم يقل مجرد "طريق"؟ ثم تكتشف أن السؤال اللغوي قد يقودك إلى سؤالٍ عن التاريخ، والاقتداء، والهداية، وعن نفسك أنت.

فالقرآن لا يطلب منا أن نكثر من التلاوة فقط، وإنما أن نفتح عقولنا وقلوبنا لما وراء الألفاظ.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، (ص: ٢٩).

فقد نقرأ سورةً كاملة، ونمر على عشرات الآيات، ثم تكون كلمةٌ واحدة هي التي توقظ فينا سؤالًا لم نكن نعرف أننا نحتاجه.

ولعل هذا هو أحد أبواب القرآن التي لا تنتهي: أن كلما أعدنا النظر فيه، اكتشفنا أن وراء ما اعتدنا قراءته معنىً جديدًا ينتظر أن نتوقف عنده.

فلا تجعل قراءتك للقرآن مرورًا على الكلمات فقط.

توقف عندها.

اسأل عنها.

وتأمل لماذا اختار الله هذا اللفظ دون غيره.

فربما كان الحرف الذي مررت عليه سريعًا هو الباب الذي كان ينتظر منك أن تطرقه.